

# حتى نحمي أطفالنا.. ماذا علينا أن نفعل؟



الكاتبة السورية  
أدونيس غزالة

# الألعاب الإلكترونية مصيدة أطفالنا المهملين



تاريخ الألعاب الإلكترونية يحفل بالعنف انطلاقاً من لعبة «space war» التي صُممت عام ١٩٦١؛ إذ تتمحور حول لاعبين يلعب كلاهما بمركبة فضائية، وهدفه تحطيم مركبة اللاعب الخصم، وصولاً إلى الألعاب الحالية التي تثير ضجة كبيرة؛ عالمياً وعربياً، وقد تكون من أخطرها لعبة «الحوث الأزرق» التي تستهدف المراهقين بين ١٢ و١٦ عاماً، وهي لعبة مؤلفة من خمسين تحدياً أو مهمة، تنتهي بانتحار الطفل، ويتم تحديد الضحايا بإرسال الرابط للمشاركة

في صناعات الترفيه، وصلت مبيعات قطاع الألعاب الإلكترونية في عام ٢٠١٦، بحسب تقرير «كيو بوست» إلى ٩١ مليار دولار، ومن المتوقع أن تصل في عام ٢٠٢١ إلى ٢٠٠ مليار دولار، وتُظهر دراسات حديثة أنّ واحداً من كل ١٠ أطفال مدمن على هذه الألعاب، والمشكلة لا تقتصر على إدمان الطفل عليها؛ بل تتعداها إلى التأثير المباشر؛ النفسي والجسدي والسلوكي والاجتماعي عليه؛ حيث تتمثل خطورتها في خلق نوازع عنفية، قد تحوّل الطفل إلى شخصية سيكوباتية معادية للمجتمع.

# «التنظيمات المتطرفة ومن بينها داعش، تستغل الألعاب الإلكترونية في تجنيد الأطفال، واستغلالهم لخدمة أهدافها»

تستغل لعبة «كول إف ديوتي ٨» حيث تمكّن الدواعش من دخول هذه اللعبة ومحادثته من يلعبها بأمور تتعلق بالدين وقتال الكفار في نوع من غسل الأدمغة. هذا التغير الإلكتروني بالأطفال الذي تقوم به هذه التنظيمات، نجح في تجنيد الكثيرين منهم من فئة المراهقين، مستغلة الإمكانيات الكبيرة التي يتيحها الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي.

إنّ الجزء المسكوت عنه في تعلّق الأطفال بالألعاب الإلكترونية، وقضائهم وقتاً طويلاً أمامها، يتعلق بالوالدين؛ إذ إنهما ينظران إلى النتائج المقلقة لهذه الألعاب، ولكن من دون الوقوف على أسبابها- خاصة أنّ هناك دراسات تشير إلى تعرّض واحد من كل خمسة أطفال للتنمر الإلكتروني يومياً في مجتمعاتنا العربية- وجلّ ما يفعلانه هو طرح أسئلة حول هذه الألعاب بعيدة عن جذر المشكلة: هل ستسرق التكنولوجيا أطفالنا؟ كيف لهذه الألعاب أن تخربّ عقول أطفالنا وتدمّر مستقبلهم؟ كيف أمكن لهذه البرامج أن تأخذ دورنا في النصح والإرشاد؟ هذه الأسئلة تثير مفارقة غريبة فهي تعيد التفكير في وظيفة الأسرة الأساسية التي

في اللعبة مما يجعلها غير متاحة للجميع، و لعبة «مريم» التي تستخدم مؤثرات صوتية ومرئية لإخافة وإرعاب الطفل، مما يؤدي في النهاية إلى تدهور حالته النفسية فالانتحار. و لعبة «جنية النار» التي تُوكّل للطفل مهمّات كفتح غاز موقد الطبخ، لكي يتحول إلى مخلوق ناري، الأمر الذي قد يتسبب في إحراق المنزل وموت الطفل حرقاً أو اختناقاً.

يكن الجانب الأخطر لهذا النوع من الألعاب، تلك التي تقف وراءها التنظيمات الإرهابية؛ إذ إنّ هذه التنظيمات المتطرفة ومن بينها داعش، تستغل الألعاب الإلكترونية في تجنيد الأطفال، واستغلالهم لخدمة أهدافها؛ حيث تجعل من العنف مصدراً للمتعة، ولتأكيد الذات، والاعتراف الذي لا يحظى به الأطفال في كثير من مجتمعاتنا. فلعبة «نداء الجهاد» تغرس في الطفل مشاعر البطولة الوهمية والقدرة على قهر الآخر والتحكم فيه، و لعبة «صليل الصوارم» التي تستغلها داعش لتجنيد الأطفال، تتيح لمستخدمها تنفيذ عمليات تفجير وقنص واقتحامات تحاكي الواقع، وأبطال هذه اللعبة مقاتلون من داعش. كما

## «في العام ٢٠٠٩ كان حجم إنفاق الطفل السعودي على ألعاب الترفيه الإلكتروني يصل إلى ٤٠٠ دولار سنوياً»

حركية، فما هي مساهمة الوالدين في هذا الجانب؟ ربما هنا تحديداً يجب تذكيرهم بمقولة جورج بيرنارد شو «لا نتوقف عن اللعب لأننا كبرنا، بل نكبر لأننا توقفنا عن اللعب».

النتيجة التي يتم تعليقها أنّ الوالدين هما من يتيحان دخول هذه الأجهزة، وتصفّح المواقع من دون متابعة الطفل، وشراء الألعاب الإلكترونية من دون النظر إلى مكامن الخطورة فيها، فهذه المواقع والأجهزة والألعاب تعفيهم نظرياً أمام أنفسهم من تحمّل مسؤوليات التربية، وتريحهم آنيّاً من فعاليّة الطفل ونشاطه، التي يتعاملان معها على أنها مصدر ضوضاء وعبء. فطبيبة الأعصاب «فرانسيس جنسن» في كتابها «دماغ المراهقين والشباب: تشير إلى أنّ العديد من المراهقين يشكون من الشعور بالوحدة وعدم وجود أصدقاء، ويتضاعف الأمر بانشغال الوالدين عنهم، وهؤلاء بالذات هم الذين يلجؤون إلى موقع غوغل، وذلك لإثبات ذواتهم التي لا يجدونها في أحضان أسرهم.

إنّ أي فعل نموٍ يحتاج إلى الحب، والحب يفقد معناه من دون الاهتمام، أطفالنا الذي يلمسون عدم اهتمامنا،

تقوم على الحماية والاهتمام، ولكن في كثير من الأحيان بعد فوات الأوان.

قبل أن يطرح الوالدان هذه الأسئلة كان من الأجدي أن يسألوا أنفسهم كيف أوصلنا أطفالنا إلى هذا؟ وبإلقاء نظرة على تمظهرات التقنية في المنزل، يمكننا بدورنا أن نطرح مجموعة من الأسئلة على الوالدين: من أدخل هذه التكنولوجيا إلى المنزل ووضعها بين يدي الأطفال؟ لماذا تمّ شراء هذه الأجهزة ولأية غاية؟ لماذا نسمح باستخدام الطفل للجهاز أثناء الطعام أو في الجلسات العائلية؟ ولماذا يلجأ الطفل إلى ذلك؟ لماذا يقضي الطفل الوقت الأطول مع الأجهزة لا مع العائلة؟ ما الذي تقدمه الأسرة للطفل في وقت فراغه كي يتعد عن هذه الأجهزة؟ ثم من يشتري ألعاب الفيديو للطفل؟

بحسب صحيفة «الاقتصادية السعودية» في العام ٢٠٠٩، يظهر أنّ حجم إنفاق الطفل السعودي على ألعاب الترفيه الإلكتروني يصل إلى ٤٠٠ دولار سنوياً، على الرغم من أنّ خبراء الصحة النفسية والعقلية قد أجمعوا على ضرورة أن يقضي الطفل ٧٥٪ من وقت فراغه في أنشطة حركية وتمضية ٢٥٪ في أنشطة غير

## «جنسن»: العديد من المراهقين يشكون من الوحدة وعدم وجود أصدقاء وانشغال الوالدين عنهم فيلجؤون إلى غوغل لإثبات ذواتهم»

سيكبرون بمنأى عتًا وفي أماكن مشبوهة، ستعيقهم في المستقبل عن أن يكونوا أسوياء، فقد صرحت منظمة الصحة العالمية أن الاضطرابات الناتجة عن ممارسة ألعاب الفيديو سيُعترف بها كمرض في وقت لاحق من هذا العام، وذلك بعد الإجماع على مخاطر إدمانها، وربما هذا ما دفع اليابان إلى إدخال مادة «ألعاب الأجداد» إلى مناهجها الدراسية لما لهذه الألعاب الحركية من أهمية في بناء ونمو شخصية الطفل خلافاً للألعاب الإلكترونية التي تسهم بشكل فعّال في تخريب وتشويش وعي الأطفال؛ حيث تطغى سلبياتها على إيجابياتها بشكل واضح. نحن نتذرع دائماً أنّ كل ما نفعله، نفعله في سبيل أطفالنا، ولكن هل هذه هي الحقيقة؟

# زوّادة التعصب: هدر مشاعر أطفالنا



قبل تعيّنهما في المجتمع تعيّنان في الأسرة وطرق التربية التي تُبّعها.

تبدأ رحلة الفرد تجاه الحياة الاجتماعية والحياة العامة انطلاقاً من الأسرة، وما يحمله الفرد من هذه الأسرة سيمثل الزوّادة التي يتغذى عليها طوال هذه الرحلة. ولكن ما نلمسه في مجتمعاتنا من انغلاق على أفكار وتصورات نهائية، لا تقبل أي شيء خارجها إلا بالإكراه، يؤكد

العناصر التي تشكّل المجتمع، تضيف عليه طبيعته، وتحدّد بالسلوك العام لمجموع الأفراد الذين يتشكل منهم، وهذا السلوك بدوره يمثّل شكل العلاقة التي تربط الأفراد مع بعضهم ومع مجتمعهم، ولا ينفصل السلوك الفردي عن السلوك الجماعي، فهو مرآة تعكس طبيعة العلاقات التي تُشكّل المجتمع، ومن خلاله نستطيع الحكم على مجتمع ما، كأن نقول: مجتمعاً منفتحاً أو مجتمعاً مغلقاً. وهاتان السمتان



## «يتم التعامل مع التعصب بأنه حالة الفرد الطبيعية وهذا يدل على التنشئة المتمثلة بتمكين جذور التعصب»

التمثل للتصورات العامة التي يتبناها المجتمع، هنا تنحصر وظيفة الأسرة في خلق فرد متمثل مع البنية العامة التي يغذيها القسر والإكراه، لا شك أنّ هذا النشاط الذي يتم تدجينه سيؤثر في نمو الطفل النفسي والجسدي؛ حيث يتم استسهال أساليب التنشئة القمعية، مقابل الجهل في كيفية التعامل مع مراحل النمو الطبيعية للطفل.

كل مرحلة من مراحل النمو عند الطفل لها خصائصها التي تميزها عن المرحلة الأخرى كما ورد عند جان بياجيه، ويتخلل هذه المراحل مجموعة من السلوكيات يقوم بها الطفل؛ كالأنانية والعناد-الذي يساعد على اكتشاف ذاته كذات وإرادة مستقلة عن الكبار- والخجل والغضب والغيرة والخوف والانطواء والانعزال، وعدم تقديره للزمن الاجتماعي؛ فالزمن من المفاهيم المجردة التي يتأخر الطفل في إدراكها، والكذب المرتبط بالمخيلة وبإحساسه وليس بالواقع، ومحاولته للاستقلال ومعارضته لما يقوله الكبار؛ لإثبات الذات أو للفت الانتباه، وهي بالطبع سلوكيات طبيعية ترافق مراحل النمو، ولكن حين ننظر لها بريية على أنها خلل يعارض البنية الأخلاقية للمجتمع، سينصب جلّ اهتمامنا على قمعها لا على قبولها والاعتراف بها، وقد يكون الطريق الوحيد للعلاج هو المعرفة التي تنقصنا،

أنّ التعصب هو أحد المواد الدسمة لهذه الزوادة، ومع هذا التعصب الذي يضرب عرض الحائط بالتجربة الإنسانية القائمة على الثقة والانفتاح والحوار، ستتحدّد صورة الآخر بقابليته للخضوع والتبعية؛ حيث سيغدو التعصب المجال الوحيد للعلاقة مع الآخر الذي لا يمكن النظر إليه إلا خشيةً وحذراً، وكأنّ الأسرة تحدّت مهمّتها في تلقين الفرد انغلاقه، متأثرة وخاضعة ومتأمرة مع كل المنظومات التي تعمل على «قمقمة طاقات الإنسان وتفتحه» بتعبير مصطفى حجازي.

يتم التعامل مع التعصب على أنه حالة الفرد الطبيعية، وهذا إن دلّ فهو يدل على وظيفة التنشئة الرئيسة في أسرنا المتمثلة في تمكين جذور التعصب، والتي ستجعل منه فيما بعد الرابطة الرئيسة التي تربط أفراد المجتمع مع بعضهم البعض. هذا بدوره يحيل إلى منهج واضح تتبّعه التربية في أغلب مجتمعاتنا، فمن جهة يتم قمع النشاط الطبيعي للطفل وترويضه، لصالح السلوك العام أو الصورة النمطية التي تتجاهل الخصائص الفردية للطفل، ومن جهة تُعمّم نماذج جاهزة لفكرة (الطفل الجيد)، والتي تقوم في أساسها على تربية الحس الامتثالي، وإقصاء ملكتي النقد والحكم، ليتم استلابه لاحقاً، فالطفل الجيد هو الطفل المطيع

## «ما نفعله هو تأصيل هذه السلوكيات بدل الاعتراف بها مساعدة الطفل ليتجاوزها»

به»، ولكن نحن جُلّ ما نفعله هو تأصيل هذه السلوكيات، بدل الاعتراف بها والأخذ بيد الطفل حتى يتجاوزها بشكل طبيعي، لذلك نحن نربي في داخل الطفل، الإحساس بالظلم والإحباط، اللذين يولدان مشاعر الحقد والكراهية والأناية. تربية الطفل على هذا النحو لن تنتج سوى فرد يشعر بالنقص وعدم الثقة والكفاءة، وستعتمل في داخله الأناية والعدوانية والعنف ثم عدم الاعتراف بالآخر؛ لأنه غير معترف به أصلاً، وهذه العناصر هي التي يتشكل فيها التعصب.

يقول هيربارت «إن التربية لتغدو ظلماً وطغياناً إذا لم تؤد إلى الحرية»، أين هي الحرية التي أنتجتها تربيتنا أمام مساحات التعصب المتوفرة بكثرة في مجتمعاتنا؟ ربما علينا أن نقف كثيراً ونفكر بما صنعنا. التعصب هو ناتج ومنتج للعنف، وجذور العنف تقوم على الإلغاء، نحن لن نستطيع أن نحيا في هذا العالم إذا لم نصغ لأطفالنا، إذا لم نصغ لبعضنا البعض، قد يكون هذا العالم أصم، ولكن هناك فرصة لتغييره، وقد تكون هذه الفرصة بين أيدينا، فلماذا نضيّعها؟

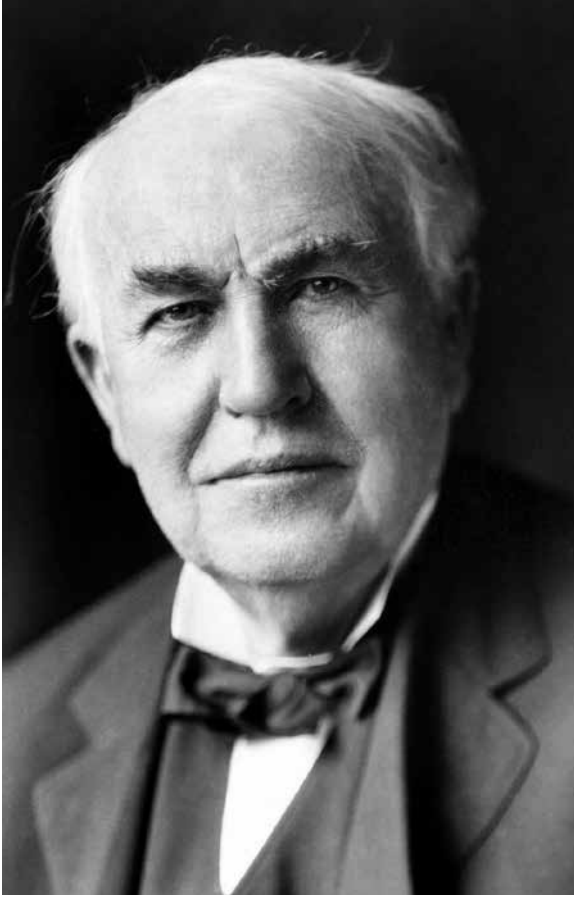
وبغياب المعرفة بنمو الطفل، لن نتعلم قبول أطفالنا كما هم، بل كما يجب أن يكونوا، وهنا يبدأ درس الإملاء الأول الذي سيعيد إنتاج رفض الآخر فيما بعد، وستصبح أدوات القمع والكبت والاستهزاء والتحقير والتصغير الرأس المال الاجتماعي لهذا الطفل، هنا تستحضرني مفارقة مضحكة ومؤلمة، فالكبار يفرضون على الصغار أموراً ليس باستطاعتهم تنفيذها، فمثلاً عندما يغضب الكبار أو يغارون أو يتصرفون بأناية أو يتشبثون بأفكارهم، يطالبون الآخرين بقبولهم واحتوائهم والتعاطف معهم والاعتراف بمشاعرهم، بالمقابل يتم إنكار هذه الأمور على الطفل، ويُفرض عليه أن يتصرف بشكل سويّ ضمن مفهومهم التقليدي للتصرف السوي.

تقول د.فاطمة الكتاني أنه من أهم مبادئ التربية الإيجابية «الاعتراف بمشاعر الطفل، والتركيز على دوافع سلوكه، من أجل تقويمه دون الإساءة لشخصيته، ويعني ذلك أنك تقف في صفّه وليس ضده، وهذا ما يجعل الطفل يشعر بالارتياح والاطمئنان إليك، لأنه وجد من يفهمه ويتقبل ما يشعر

«هيربارت: إن التربية لتغدو ظلماً وطغياناً إذا لم تؤد إلى  
الحرية»



# كم أديسون خنقه نظامنا التعليمي؟!



يعود اختراع طريقة الامتحان التحريري إلى الصينيين (٢٢٠٠ ق.م)؛ حيث كان إمبراطور الصين يختبر الموظفين مرةً كل ثلاثة أعوام، لقياس مستواهم الفكري من أجل تعيينهم في المناصب العليا، أو لترقيتهم إلى درجة أعلى، أو فصلهم من التكليف الموكل إليهم، ثم ما لبث أن انتشر نظام الامتحان الصيني في الدول الآسيوية المجاورة، لينتقل فيما بعد إلى العالم الغربي، ثم إلى المدرسة التي ساهمت النظم الكولونيالية في تعميقه وانتشاره بصورته التي نعرفها اليوم.

وما نزال، بعد آلاف السنين من تاريخ ظهور الامتحان، نقيس ونقيّم مستوى أطفالنا بمسطرة الإمبراطور الصيني؛ فنعاملهم كموظفين يتوقف مستقبلهم على الامتحان الذي يقرر مصيرهم بشكل نهائي، لقد تخلينا عن مساعدة الطفل في أن ينمو نمواً صحيحاً متوازناً، يوفّر له مناخاً منفتحاً على المعرفة والتحصيل العلمي، لصالح نظام تقييم يخلو من التقويم، ويصدر بحقه حكماً نهائياً بالنجاح أو الفشل.

أديسون؛ صاحب المصباح الكهربائي وكثير من الاختراعات الأخرى، الذي نعتّه معلمه بالغبي، نجح بما فشل به كثيرون، بعيداً عن سلطة المدرسة وتقييمها، ولم يتعرّض لما تعرّض ويتعرّض له أطفالنا، وبالطبع هذه ليست دعوة إلى «اللامدرسية»؛ إنما دعوة لنحصى كم أديسون خنقناه بسلطة التقييم، وأوهمناه بأنه غبي، حتى استحال إلى غبي بالفعل.

## «لقد تخلينا عن مساعدة الطفل في أن ينمو نمواً صحيحاً متوازناً، لصالح نظام تقييم يحكم عليه بالنجاح أو الفشل»

بوجهها عن كل نقد يخلخل هيمنتها، والطعن بأية تجربة تثبت بطلان منهجها، وإذا اضطرت للانصياع «مرغمَةً» لثُماشي التغييرات العالمية، ستعمل على المظهر لا الجوهر.

«اللية لا تصنع فيلسوفاً»، بتعبير ابن رشد؛ فالمناهج التعليمية الجديدة والإستراتيجيات المفتعلة ستبدو كقفاعات أمام القاعة الامتحانية التي تزداد بؤساً يوماً بعد يوم؛ وجوه صغيرة يلفّها الخوف والقلق والتوتر، تُفرد أمامها أوراق الامتحان، البعض ينكبّ على أوراقه محيطاً إياها من كل الجوانب لتفادي سرقة المعلومة منه، والبعض يتدفق الدم إلى وجهه؛ فهناك ما لا يستطيع معرفته، والبعض يشحب وجهه، بينما تغور عيناه في محجرين متصلبين؛ الأسئلة غريبة عنه، إنه لا يتذكر شيئاً، وهناك من تبدأ عيناه تزوغ يميناً ويساراً، يريد أن يلتقط أيّة إجابة قد تشكل خلاصاً من التهديد المرعب للدرجة «صفر»، البعض سيترك القلم على الورقة ويشرد في أحلام يقظة خارج حدود سجن الأسئلة، وحين ينتهي الوقت المخصص للامتحان، ستسمع بكاء

كلمة فشل لم تتسرّب لقاموس أديسون النفسي، لقد نجا من هذا التقييم بتركه المدرسة بعمر ٨ أعوام، وهذا ما جعله يمارس إمكانية الخطأ العظيمة في إنتاج المعرفة الإنسانية، فقلوه: «أنا لم أفشل؛ بل وجدت ٠١ آلاف طريقة للنجاح»، ليس من باب عدم الإقرار بالفشل، وإنما التأكيد على أهمية التجربة المفتوحة على كافة الاحتمالات.

إنّ تقسيم الأطفال إلى أذكياء وأغباء تقييم مجحف، يتم إقراره بنظام الامتحانات، الذي لاقى نقداً ورفضاً من مفكرين كثيرين برهنوا على لا أخلاقيته التي تخلّ بالشرط الإنساني، أمثال: باولو فريري، ويير بورديو، وميشيل فوكو، ومير فاشه، إضافة إلى تجارب لاقى نجاحاً مميّزاً بتخليها عن نظام الامتحان، كتجربة فنلندا وسنغافورة، والتجربة التربوية المبكرة والمدهشة لخليل السكاكيني، لكن الأنظمة لن تقبل بالتخلي عن أداة تمنحها شرعية مضمرة وعلمية للتحكم بالفرد، وتحديد أهوائه وميوله، وصياغته بالطريقة التي تخدم أهدافها، لتجعل منه وسيلة لغاياتها لا أكثر، ولذلك تشيخ السلطات

# «الجهود الكبيرة المبذولة قبل امتحان الشهادات تحيل إلى أن الغش ظاهرة عامة تشبه وباءً تجب مكافحته»

ستبقى جملٌ من نوع «عينك بورقتك»، مع حذف قسمها الثاني: «وإلا...» للشيوخ، تحمل العقلية التي تجعل من المعرفة هامشية، مقابل صورها المجردة والفارغة.

إنّ نظام الامتحان، خاصة في المراحل الأولى من التعليم، لا يحقق الجدوى المطلوبة، إذا كانت هذه الجدوى موجودة أصلاً؛ فالعلامة المتدنية للطفل لم تغير من واقع تعلّمه؛ بل في كثير من الأحيان تزيده سوءاً، المعلم أمام الأعداد الكبيرة في غرفته الصفية لا يمكنه متابعة كل طفلٍ على حدة، وتقويم الخلل الذي كشفته العلامة المتدنية، والطفل الذي حصل على علامة متدنية سترافقه هذه العلامة كوصمة عار تؤطر جميع إمكانياته وتشلّها.

يسأل أحد الأطفال: ماذا يفعل المعلم بأوراق الامتحان بعد إعطائنا العلامة؟ وعند إجابته أنه يحتفظ بها، عبّر عن أسفه لأنه لا يريد أن يرى أحد علامته المتدنية؛ فهذه العلامة هي التي عرضته لتأنيب معلمه، ونعته بالكسول والغبي وغير المبالي، وسخرية رفاقه، وغضب أهله

أحدهم، وسيتمسك آخر بورقة إجابة لا يثق بما دوّن عليها، أو بسبب استعصاء أسئلة على الحل؛ أمام كل هذه الوجوه، التي لا تقلّ في كثير من الصفوف عن الأربعين، سنجد صعوبة في أن نعثر على وجه هادئ مطمئن.

على الضفة الأخرى لقاعة الامتحان؛ يقف المعلم منتظراً بفارغ الصبر انتهاء الوقت المخصص، متنازلاً بلا وعي عن كونه معلماً، وأنّ مهمته تقتصر على توفير الراحة والاطمئنان لتأدية الطلاب امتحاناتهم، ليتلبّس التسمية التي تُطلق عليه في القاعة (المراقب)، ويلعب دور الشرطي الذي يفترض مسبقاً أنّ هناك من سيغش؛ فنظام المراقبة هو أداة السلطة الأبرز في القمع، المعلم (المراقب) يعيد إنتاج السلطة وهيمنتها؛ كما أنّ الجهود الكبيرة المبذولة قبل امتحان الشهادات من الدوائر المختصة في وزارات التربية لمكافحة الغش، تحيل مباشرةً إلى أنّ الغش ظاهرة عامة، تشبه وباءً يجب مكافحته، دون أن يتنبه أحد إلى أنّ الأنظمة نفسها التي تعتمد نظام الامتحانات، تكافح ظاهرة هي المؤسّس الفعلي لها.

## «الطفل الذي حصل على علامة متدنية سترافقه هذه العلامة كوصمة عار تؤطر جميع إمكانياته وتشلّها»

من علامة يرون أنّها مؤشّر على ضياع  
تعبهم وعدم تقدير الطفل لمجهودهم،  
خاصةً إذا كانوا يسعفونه بدورات التقوية  
والدروس الخاصة التي أصبحت ظاهرة  
عامّة في كثير من مجتمعاتنا.

لقد نجح هذا التقييم في جعل الجميع  
قلقين؛ حيث أصبح المعنى اللغوي لكلمة  
امتحان «محنة وابتلاء»، واقعاً معيشاً،  
المحنة التي تم توظيفها لتعزيز آليات  
القهر الممارسة على الإنسان، وللحدّ من  
إمكانات العقل بدلاً من إطلاقها، فطفلي  
ذات الستة أعوام بدأت بالاحتجاج، بعد  
يومين من بدء الامتحان، قائلة: «لا أريد  
الذهاب إلى المدرسة إنهم يسألون أسئلة  
أعرف إجاباتها وهذا يشعرني بالملل»،  
أنظر إليها وأتساءل: هل كانت تنتظر  
أسئلة لا تعرف الإجابة عنها؟! ولا أجرؤ  
أن أخبرها أنّ استمرار العملية الامتحانية  
عبر هذا التاريخ الطويل للتطور البشري،  
وما يحمله من إقصاء، يدل على طبيعة  
الحضارة التي صنعناها اليوم؛ حضارة لن  
تتخلص، على ما يبدو، من عقد نشوئها  
وأساطير تفوّقها وارتقائها، طالما أنّها ما  
تزال تنتج القلق والخوف والحرب.

# نعلم أطفالنا القراءة.. فأين يختفي القارئون؟



أسباب كثيرة ولكن لكل خلل نقطة يبدأ منها.

في أحد الاختبارات لطلبة الصف الأول، ورد السؤال التالي: الطفل صديقه الأزهار أم المياها؟ من اختار «الأزهار» لم يحصل على علامة السؤال؛ لأنَّ الإجابة المفروضة هي المياها، بناءً على أحد دروس الكتاب،

علينا أن نتخلى عن التّصوّر البسيط للقراءة بوصفها مسحاً آلياً وفك شيفرة، إنّها عملية عاطفية وآنية وذاتية، تُرسّخ بها النصوص وتصبح إشكالية. ولقد وضع الروائيّ الأمريكي، فيليب روث، يده على المعنى العميق للقراءة، ففي مجتمعاتنا يتعلم الأطفال القراءة ولكن قلة من يصبح قارئاً، بالطبع هناك

## «يشير إلكايند إلى أن أطفالنا يتعلمون القراءة ولكن بثمن باهظ فهم لا يشعرون بمتعة القراءة لأنها فُرضت عليهم بالإكراه»

أما التيار الثالث، وهو ما سمّي  
بمرحلة بزوغ القراءة والكتابة، إذ يشير هذا  
المصطلح إلى سلوكيات القراءة والكتابة  
التي يظهرها الأطفال الصغار في المراحل  
المبكرة من حياتهم؛ كالرسم والخربشة،  
والاستماع للقصص والتظاهر بالقراءة،  
والاهتمام بالكتب وتقليبها، ومحاولة  
الكتابة المبكرة بمختلف أنواعها، والتي  
تسبق القراءة والكتابة المتعارف عليها،  
فتعلم الطفل للقراءة والكتابة لم يعد  
مقتصراً على ما يتلقاه الطفل في الروضة،  
وبالتالي ينبغي للروضة أو المدرسة أن تكون  
مستعدة للطفل بدلاً من أن يستعد هو  
لهما، ونتيجة لذلك بات لزاماً على رياض  
الأطفال أن تدخل تعليم القراءة والكتابة  
في مناهجها، مع توصيات خاصة للآباء  
بالقراءة اليومية للأطفال، وتوفير مواد  
القراءة في البيت، واصطحاب الطفل إلى  
المكتبة، والجلوس مع الأطفال والكتابة  
معهم.

بالمقارنة بين التيارات السابقة نلمس  
تسارعاً تدريجياً لجعل عملية تعلم القراءة  
تُجَزَّ بأسرع وقت، فمن تيار لَمَ العجلة؟  
إلى لَمَ الانتظار؟ إلى كونوا مستعدين. ويبدو

مع أنّ هذا الخيار يشير إلى أنّ الطفل  
تعامل مع السؤال على المستوى الإشكالي،  
ووضع ذاته داخل الإجابة من دون أن يقوم  
بعملية الاستذكار والمسح الآلي كما القسم  
الأخر من الأطفال الذي اختار «المياه». من  
خلال تتبّع التيارات التي بحثت في مفهوم  
تعلم القراءة ربما يمكننا أن نرصد الهوية  
التي تفصل بين الإجابتين.

وبحسب، فتحي محمود إحميدة، في  
دراسته التحليلية «بزوغ القراءة والكتابة  
عند الأطفال»، فقد ذهبت مسألة تعلم  
القراءة في ثلاثة اتجاهات؛ الأول برز في  
العشرينيات من القرن الماضي، ويرتكز  
على أنّ الاستعداد للقراءة ناتج عن النضج  
العصبي، وأوصى بتأجيل تعلم القراءة إلى  
أن يبلغ الطفل عمراً عقلياً مناسباً، وهو  
سنة أعوام وستة أشهر.

وفي أواخر الخمسينيات وبداية  
الستينيات من القرن الماضي، ظهر تيار  
عارض الأول واعتبر أنّ الاستعداد للقراءة  
ناتج عن الخبرة، وتم الاعتماد على برامج  
هدفت إلى تمكين الطفل من إتقان مهارات  
الاستعداد للقراءة وتجاوز اختباراتها.



# «تركز الروضات الحكومية للدول ذات التجارب التعليمية الناجحة على التعليم التجريبي الذي سمح للأطفال بالتعلم بشكل فطري»

يتعلّم الطفل القراءة شيء، وأن يصبح قارئاً شيء آخر.

ما جاء به إلكايند يفسر الهدف من تشديد الأمريكيين على ضرورة التعليم المبكر، فعندما شعروا بتفوق الروس في أبحاث الفضاء أثناء حربهم الباردة، تمت إعادة النظر في المناهج التعليمية، وتم الاتفاق على جعل المناهج أكثر تشدداً وصرامة، وجعل التعليم يبدأ في سن مبكرة من حياة الطفل، للوهلة الأولى يبدو هذا الموقف إيجابياً؛ فالولايات المتحدة أرادت لأطفالها مستقبلاً أن يبدأوا بالتعليم المبكر وينتهوا في الفضاء. ولكن هذا الموقف يخفي وراءه الأجندات التي تعمل على لي عنق التربية، من أجل تحقيق مصالحها، وتواطؤ يجعل من العلم غاية تستنزف الإنسان وتُهمّش إنسانيته.

بالمقارنة مع مجتمعاتنا يبدو أننا والأمريكيين متفقون على جعل التعليم يبدأ في سن مبكرة، ولكننا مختلفون بالأهداف، بالتأكيد عجلتنا لا علاقة لها بالحصول على أكاديميين لسوق العمل، وليس تسابقاً

أنّ المناهج الجديدة في مجتمعاتنا وقعت على الخيار الثالث، فالمنهاج الجديد للصف الأول، كما في سورية، على سبيل المثال، وُضع لطفلٍ قطع شوطاً في تعلم مبادئ القراءة والكتابة في سنواته التي أمضاها في الروضة. والسؤال ما الدافع وراء ذلك؟ هل هو حقاً من أجل الطفل وتماشياً مع رغبته وميله ونموه؟

في كتاب الطفل المستعجل، لديفيد إلكايند، هناك ما يناقض ذلك؛ إذ يشير إلكايند إلى أنّ أطفالنا يتعلمون القراءة، ولكن بثمانٍ باهظ، فهم لا يشعرون بمتعة القراءة؛ لأنها فُرِضت عليهم بالإكراه. وهذا الإكراه لا يعكس حاجة الطفل أو ميله، إنما يعكس العنف الذي نمارسه على أطفالنا كي يتكيفوا مع احتياجاتنا وتطلعاتنا، والتكيف مع برامج حياتنا بدل أن نتكيف نحن مع برامجهم الطفولية، إنها الطريقة الأقل تطلباً في التعامل معهم، حيث توفر الكثير من الطاقة والجهد اللازمين لمعرفة الطفل والاعتراف به. وبحسب إلكايند، فإنّ القراءة المبكرة لا تؤدي بالضرورة إلى قارئٍ متلهّف، ولا تُعتبر مؤشراً على النجاح المهني، أن

لسنا في عجلة من أمرنا، الأطفال يتعلمون بشكل أفضل عندما يريدون ذلك، فلماذا نقوم بإجبارهم ونضع ضغوطات نفسية نحن وهم في غنى عنها؟»

إذا كان عالمنا اليوم محصلة الحركة البشرية التي تنتج، فنحن من حيث لا ندري ساهمنا في خلق تسارع جهنمي، سيقذف الكوكب عمّا قريب إلى ما لا يُحمد عقباه، هذه السرعة لا تشير إلى نشاط جنسنا البشري كما نتوهم، بل تشير إلى العجلة الناتجة عن الأعباء المترتبة على الحياة، والتي تدفعنا لنهني العمل بأقصى سرعة، كي نقبض على المستقبل، ولكن هذا بالضبط «ما أعمى بصيرتنا لا عن رؤية ما ليس متوقعاً فحسب، بل وعن رؤية ما هو متوقع» بتعبير إدغار موران.

لنتخيل حركة البرغي الذي نضعه في الجدار، مع كل حركة دورانية سيتقدم أكثر حتى نصل إلى ثباته، الآن نحن مطمئنون، لوحتنا لن تسقط، هناك من سيحملها بجداره. فعندما ينغرس أطفالنا تماماً في الجدار نكون قد أنجزنا المهمة ووضّعناهم في المكان الذي نريد، وبهذا نتأكد أن عالمهم لن يختلف عمّا سنتركه لهم، فازدياد عدد المتعلمين لم يغيّر من الواقع شيئاً، ولمن يضع إشارات استفهام ويستغرب ارتفاع نسبة المتعلمين بين

على الاختراعات، ولا من أجل أن نخلق قارئين، فمؤشر البطالة المرتفع، وتهميش وطمس المخترعين في بلادنا، ونسبة الجهل والتجهيل، كل هذا واضح للجميع، إنّ أسبابنا تنتمي لبيئتنا الاقتصادية والسياسية والدينية، فرغبة الوالدين في تعليم أطفالهما القراءة يعكس طموحاً أجوف يتماهى مع الصورة الاجتماعية والاقتصادية للواقع، وبالنسبة للمدرسة إنّها تنفذ البرنامج الذي يُملى عليها، وهذا البرنامج لا يُعترف به إلا إذا مرّ من تحت يديّ السلطتين السياسية والدينية؛ حيث تستعجلان تلقين الطفل مبكراً للجمل المغلقة، قبل أن يبزغ ريشه ويبدأ بإقامة علاقة بينه وبين الكلمة.

ما تبنته مجتمعاتنا حديثاً تجاوزته الدول المصدرة له، فالروضات الحكومية للدول ذات التجارب التعليمية الناجحة، تركز على التعليم التجريبي، الذي يسمح للأطفال بالتعلم بشكل فطري وفق شروطهم الخاصة، من خلال الاستكشاف والتجربة والإبداع والتفاعل مع العالم من حولهم، بواسطة نشاطات مثل؛ اللعب والفن والموسيقا والرقص، واستكشاف الطبيعة والبيئة المحيطة بالطفل، بعيداً عن بنية المنهاج المدرسي، بالإضافة لانتشار ما يسمى «بمدارس الغابات»، ولا يتم تعليم القراءة إلا إذا أظهر الطفل رغبة في ذلك، خيراؤهم يقولون «نحن

المتطرفين، هؤلاء تم تعليمهم القراءة  
ولكن لم يتم تعليمهم كيف يكونون  
قارئين، ليتجنبوا ما وصلوا إليه. هل  
تخيل أحدنا فداحة اللوحة التي نرغب في  
تعليقها؟ طوبى للفراشات التي هربت من  
اللوحة واختارت الأزهار مسكناً لها.

# لماذا نورت أطفالنا ما كان وبالاً علينا؟



وبتعبير آخر؛ هل مكنت هذه الجهود الأفراد من أن يعثروا على ما يجعلهم أكثر توازناً وصحةً ووفرة؟ في نظرة سريعةٍ إلى العالم من حولنا؛ نجد أنّ الجهود البشرية تُبذل في المكان الخاطئ؛ فالجميع يعيش اليوم في جوٍّ مشحون

إذا كان العالم قد وصل إلى ما وصل إليه اليوم، فهذا يعود إلى حجم الجهد المبذول لتحقيق ذلك، ولكن هل ساهمت بالفعل هذه الجهود في خلق علاقة صحيحة مع العالم، أو بين الأفراد في المجتمعات المختلفة؟

# «الجهود البشرية تُبذل بالمكان الخاطئ فالجميع يعيش اليوم في جوّ مشحون بالخوف والانتظار هناك من يُسهم بتغذية العالم بالعصاب»

العنيفة، هذه الخبرات العنيفة بتعبير هورني؛ هي شرط لازم وضروري للعصاب، الذي ينشأ عن الشعور بالعجز والعدوان والعزلة.

فبرأي هورني؛ إنّ «أكثر العوامل حيوية في تشكيل الشخصية هي العلاقات الإنسانية التي يعيشها الفرد في طفولته»؛ فهذه العلاقات بقدر ما تفتقد للأمن والحماية ستغذي لدى الطفل الإحساس الدائم بالقلق، ما سيدفعه إلى تنمية مختلف الأساليب ليواجه ما يشعر به من عزلةٍ وقلّة حيلة؛ «فقد يصبح عدوانياً أو سافر الخضوع، أو يكون لنفسه صورة مثالية غير واقعية، ليعوّض ما يشعر به من نقصٍ وقصور»، إنّ انتشار هذه الصور الثلاث بين أطفالنا اليوم، يشير إشارة فاقعة إلى افتقارهم للحبّ والاهتمام والأمان، في ظلّ أنظمةٍ تربوية تعمل عكس ما هو منوط بها.

فما نحاربه في أطفالنا، هو في الحقيقة، ما ندرّبهم عليه؛ لذا فالنتائج

بالخوف والقلق والانتظار، هناك من يُسهم باستمرار في تغذية العالم بالعصاب، وقد يكون لمجتمعاتنا، التي تعيش انقسامات شتى، الحظّ الأوفر في إنتاجه، وبالاعتماد على نظرية كارين هورني، المحللة النفسية الألمانية، عام ٢٥٩١، ربما تتمكّن من تقصي مدى تغلغل هذا العصاب في مجتمعاتنا.

إذا كان ما يولّد العصاب، بتعبير كارين هورني؛ هو «القلق الناجم عن الشعور بالعجز تجاه عالمٍ مشحون بالعداء وشعور بفقدان الضمان»، فإنّ مجتمعاتنا تتوفر على بيئة مثالية لإنتاجه ونموّه، فالعصاب بالمحصلة؛ هو عدم توافق نفسي عنيف بين ما نريده وما نحن عليه، وهذا ما يجعل من الحواضن التربوية في مجتمعاتنا، تنتهج أنماطاً اجتماعية تغذي بشكلٍ لاواعٍ، السلوكيات العصابية للطفل، التي قد يكون أبرز أشكالها العنف؛ فالسعي إلى المكانة، الذي يقوم على إزاحة الآخر والتنافس معه واستفزازه والتذمر منه وعدم الثقة به، جعل الآخر عدواً، وساهم بقصدٍ أو من غير قصد، بتكوين خبرات الطفولة

## «العدائية التي تحيط بالفرد ستجعل من الآخر عدواً إن كان بمقاومته أو الابتعاد عنه أو التبعية له»

نمط بيئتنا الاجتماعية التي تنمو فيها العصبية، بالمقابل نزعة «التحرك ضد الآخرين» التي تتمثل بالسلطة والسيطرة والعدوانية، ونزعة «التحرك نحو الآخرين»، والتي تتمثل بالتبعية والخضوع، هما نزعتان تسيطران على العلاقات؛ بسبب الحاجة المستمرة لتأكيد الذات، ولكن بما يسحقها، فالعدائية التي تحيط بالفرد ستجعل من الآخر عدواً، إن كان بمقاومته، أو الابتعاد عنه، أو التبعية له، وسيجد أنّ الآخر يتجذّر في داخله أكثر، ليسيطر على جميع سلوكاته وأهدافه وطموحاته، وهذا بالطبع لن يحقق الطمأنينة له، إنّه يساعده فقط في الهرب من ألم القلق، الهرب الذي سيبعده عن ذاته أكثر.

عوداً على بدء؛ إنّ العالم الذي أنتجته العلاقات الإنسانية، هو المحصلة النهائية لجملة الجهود المبذولة نحوه؛ لهذا فإنّ الاتجاه الذي تتخذه الإنسانية في سيرها؛ هو المؤشر على صحة أو خطأ ما ننتهجه، قد لا يشير الواقع الذي نعيشه اليوم إلى ما يسرّ في تقدمنا، ولكنّ الفرصة متاحة دائماً، فدعوات «أوشو»، في كتابه «ثورة في التربية»، ربما تحفزنا لإدراك

المرتبة على هذا الشكل من التربية تصبح إستراتيجيات لا واعية لدى أطفالنا، ومردّها -بحسب هورني- إلى محاولة أطفالنا خفض القلق لديهم، وتعويض نقص الحبّ والأمان، مما سيحوّل فيما بعد الحاجات الطبيعية إلى حاجاتٍ عُصابية، وقد يكون أبرزها في مجتمعاتنا؛ الحاجة العصابية للقوة، التي تعمل على تقديس القوي واحتقار الضعيف، والتي تولّد حاجات عصابية أخرى، كالحاجة العصابية للتقدير الاجتماعي، باكتساب مكانة مرموقة، المكانة التي تحرّك الحاجة العصابية للطموح والإنجاز الشخصي، الذي يتعيّن بالشهرة والغنى، من خلال استغلال الآخرين، ومنافستهم، والسيطرة عليهم، بدل التعاون معهم والاستفادة من خبراتهم.

هذه الإستراتيجيات التي يحاول الفرد من خلالها خفض منسوب القلق، ستعمل على تحديد طبيعة علاقته بالآخرين، من خلال ثلاث نزعات حددتها هورني، وهي: «التحرك ضدّ الآخرين، والتحرك نحو الآخرين، والابتعاد عن الآخرين»، وإذا قمنا برصد واقع مجتمعاتنا، سنجد أنّ الابتعاد عن الآخرين هي النزعة الأضعف؛ بحكم



مآزقنا، وصنع الفارق مع أطفالنا: «لا أدعوك أن تنجح، أدعوك لأن تكون إنساناً، لا أدعوك أن تصل إلى مواقع القوة، لكن أدعوك أن تصل إلى كيانك الداخلي؛ حيث يوجد شيء جدير بالاهتمام، أدعوك ألا تتنافس مع أي شخص، لتتمكن من إيقاظ إمكانات إنسانيتك».

قد تتمكن من تجفيف العصاب، طالما أنّ هناك إمكانية لإدراكه، ولكن هذا الإدراك يتطلّب ممّا الكثير؛ إنّهُ بالضرورة سينمو مع الحب والاهتمام، وهذا كلّ ما يحتاج إليه أطفالنا والعالم الذي نعيش فيه، فإذا انتظرنا أن يتغيّر العالم قد يكون انتظارنا بلا جدوى، بينما الإمكانية متاحة دائماً في أن نتغيّر نحن، هذه اللحظة بالذات هي التي ستتكلّف بصنع الفارق.

# أطفال السوشيال ميديا.. نجومية أم عمالة من نوع جديد؟



شموليته في إدانة أي عمل قد يُعدّ انتهاكاً للطفولة مهما كان نوعه، لكن ماذا لو كُنّا اليوم نشهد نوعاً جديداً من العمالة فيما يسمّى بالعالم الافتراضي؟ وماذا لو كان هذا النوع يلقي رواجاً حتى في الدول التي وقّعت على هذه الاتفاقية، وتُعدّ حقوق الطفل فيها مقدّسة؟

جاء في اتفاقية حقوق الطفل، الموقّعة عام ١٩٨٩: «ضرورة السعي لحماية الطفل من الاستغلال الاقتصادي، ومن أداء أي عمل يُرّجح أن يكون خطراً أو يمثّل إعاقة لتعليمه، أو ضرراً بصحته، أو بنموّه البدني أو العقلي أو الروحي أو المعنوي أو الاجتماعي»، قد ترجع أهمية هذا البند إلى

## «ما نراه من قنوات يتصدّرها الأطفال على منصات التواصل، خاصة اليوتيوب، عمالة من نوع جديد بزّي أنيق وحذاء لامع»

من الفيديوهات التي يقوم الوالدان بمشاركتها، ليس لها هدف سوى التسلية، وقد لا تبالي في كثيرٍ من الأحيان بجعلِ الطفل أضحوكةً ومثارَ تندّر، غير مكرثةٍ لمشاعره وأحاسيسه، وفي فيديوهاتٍ أخرى يستخدم الوالدان أطفالهما ليمرّرا من خلالهم مواقفهما ووجهات نظرهما، خاصةً السياسية منها والدينيّة.

ربما ليس مفاجئاً أن نجعل أطفالنا أضحوكة للآخرين عبر العالم الافتراضي، أو نستخدمهم كأداةٍ للكسب المادي، أو للشهرة، أو لتميرر أيديولوجياتنا، أو لتعويض عقد نقصنا، فما ذلك سوى انعكاس لعالمنا الواقعي، الذي نتعامل فيه مع الطفل كدمية نحركها كما نشاء، ونقولها ما نريد، ونختبئ وراء تبريرات تزيد من الطين بلّة، كتبرير الكسب المادي عبر السوشيال ميديا، بحجة أنّه من المهم أن يعرفَ الطفل مبكراً قيمة المال الذي يجنيه بجهده، أو من يدّعي أنّ هذه الفيديوهات لمشاركة أفراده مع الآخرين، وليس وراءها أيّ كسب مادي، أو أنّ هذه المواهب يجب أن ترى النور عبر منابر أصبحت أساسية في حياتنا، أو بحجة التوثيق والأرشفة.

ما نراه من قنواتٍ يتصدّرها الأطفال على منصات التواصل الاجتماعي، خاصةً اليوتيوب، هي عمالة من نوعٍ جديد، بزّي أنيق وحذاءٍ لامع، عمالة تعتمد على الشهرة لتحقيق الربح؛ حيث تصبح شهرة الطفل الذي يحظى بمشاهدات عالية أداة لترويج المنتجات، مهما كان نوعها ومصدرها، وهذا بالضبط ما يربط الطفل بالعمل، لكن بطريقة ملتفة؛ إذ إنّ هناك الكثير من العائدات الإعلانية ستعود على أسرته بالمرباح، ومن اللافت للانتباه أنّ أغلب الأسر التي تقوم بتغذية عمالة الأطفال في العالم الافتراضي ليست من الأسر الفقيرة، بخلاف عمالة الأطفال في العالم الواقعي.

قد تكون هذه العمالة دليلاً على التناقض بين حقوق الطفل والجشع العام، الذي جعل من الشهرة والربح غايّتين في الواقع الاجتماعي، ورغم أنّ فكرة الكسب المادي من خلال السوشيال ميديا في مجتمعاتنا ما تزال تقتصر على فئاتٍ معينة، ولم تحقق بعد انتشاراً واسعاً، ولكن هناك ما نقوم به ربما هو أخطر من ذلك بكثير وأوسع انتشاراً، فكثيرٌ

## «الاستخدام الخاطئ وغير العقلاني للتقنية عزّز القلق والخوف وساهم مساهمة حاسمة في تسطيح الوعي الإنساني»

أو تعريضه للشهرة والنجومية، سيجعل أطفالنا يعيشون خارج طفولتهم، في عالم يكون الإنسان فيه مهماً فقط كلما ازدادت أعداد المعجبين به، هكذا نربي الآخرين داخل أطفالنا، ليصبح الآخرون، منذ اللحظة، من يقررون وجودهم.

فالفيديوهات التي تروّج لهؤلاء الأطفال على أنّهم خارقون أو غير طبيعيين، ويتم تناول هذا التوصيف على أنّه إيجابيٌّ، تدفعنا للتساؤل: هل نحن في حاجة إلى أطفال غير طبيعيين؟ إنّ فكرة التفوّق التي تدغدغ المخيلة البشرية، جعلت من العالم حلبة صراع، ومن التنافس الذي يتغذى على الإقصاء، الطريقة الوحيدة للوجود؛ على هذا الطريق بالضبط نحن نضع أطفالنا، وبينما نحن نمنعهم من أن يكونوا أطفالاً طبيعيين يحظون بطفولتهم، نجعل منهم ما نريد، وما نريده هو ما سينتج عنه العنف والتطرّف؛ لذلك نجد أنّ الفيديوهات التي ينشرها المتطرفون لأطفالهم، والتي تتضمن عقائدهم، لا تختلف عن الفيديوهات التي ننشرها لأطفالنا، سوى أنّ الأولى مباشرة وواضحة، تضعك أمام العنف وجهاً لوجه،

ومهما قُدّم من تبريرات، ستبقى موسومة باختراقها لثلاثة بنودٍ في اتفاقية حقوق الطفل؛ من ناحية عمالة الطفل، وعدم احترام خصوصيته، واستغلاله، وخاصةً البند الأخير، فأيّ مبررٍ لن يكون خارج دائرة الاستغلال، وإن كان بغير قصد؛ فالطفل لم يمتلك بعد الإدراك الكافي ليقرر إيجابية هذا الأمر أو سوءه، والأهلية التي يتحصّن بها الوالدان تفقد شرعيتها طالما لا يستطيعان النظر إلى الطفل كما هو، وباستمرارهما في التعامل مع الموهبة على أنّها أهم من الطفل، سينتهي بهما الأمر إلى فقدان الطفل وموهبته.

وإذا كان هذا النوع من العمالة يحظى بمقبولية اجتماعية؛ كونه لا يتطلب جهداً كما في العمالة التقليدية؛ فهذه المقبولية لا تبيح لنا، بأيّ شكلٍ من الأشكال، أن نجعل الأطفال يسدّدون فواتيرنا المعيشية، ففي النهاية مهما كان نوع العمل الذي يقومون به، ومهما بدا غير مُذلّ؛ فهم يعملون من أجلنا بدل أن نعمل من أجلهم، وبهذا يتحطّم المبدأ الأقوى في أيّة تربية؛ مبدأ حماية الطفل، كما أنّ تحويل الطفل إلى مهرجٍ أو ممثلٍ أو أداة ترويجٍ لمنتجٍ ما،

الأمر لأن نبتلع بعضنا، بينما تستمر التقنية في استهلاكنا؛ حيث تتردد صرخة نيتشه في نهاية المطاف كنبوءة: «احذروا عصر العدمية القادم لا محالة».

بينما ما نشره نحن عن أطفالنا، ولأطفالنا، وإن كان يبدو في الاتجاه المعاكس المشرق والمضيء، لكنّه يحمل في طياته منتجات العنف نفسه.

فما خلفته وتخلّفه الحروب والنزاعات، من تشريدٍ للأطفال وآلام الفقد لذويهم، والتردي الاقتصادي الذي يجبر قسماً كبيراً منهم على العمل، بالإضافة لموجات اللجوء والنزوح، والأمراض المنتشرة بفعل عوامل كثيرة، وما يتعرضون له من بردٍ وجوع، له وقعٌ كارثيٌّ، وربما لا يمكن مقارنة واقع طفل الحروب، بطفل السوشيال ميديا الجالس بين أفراد أسرته ولم يتعرض لكلّ هذا الجحيم، ولكن إذا أمعنا النظر بالنتائج، سنجدّها واحدة بأدواتٍ مختلفة، فطفلٌ تشرّده وتستنزفه الحرب، وآخر يشرّده ويستنزفه الجهل، جهلنا.

من المفترض على القفزات التي تقفزها البشرية في أيّ مجال أن تساهم في استقرار الإنسان وسعادته، لكنّ ما يحدث واقعياً هو العكس تماماً؛ فالاستخدام الخاطيء، وغير العقلاني، للتقنية، عزّز القلق والخوف، وساهم مساهمةً حاسمة في تسطيح الوعي الإنساني، بالتأكيد ما لم نعتزف بأخطائنا، أو طالما نصرّ على تبريرها، وسيشكّل هذا التجاهل المتعمّد التهديد الأهم في الوجود؛ إذ سينتهي بنا

# بماذا حشونا وسائد نوم أطفالنا؟



إلى نوم هؤلاء الأطفال؟ ربما نعرثر على صورة مغايرة هناك؛ فالأحلام قد تمكننا من العثور على مفاتيح الواقع الضائعة.

في استبيانٍ غير علمي أجرته كاتبة المقال شمل مئتي طفل وطفلة تراوحت أعمارهم بين ٣١ و٢١ عاماً، ضمّ ثلاثة أسئلة: بماذا تحلمون؟ ممّ تخافون؟ ما الذي يزعجكم؟، حيث شغلت أحلامٌ مشتركة ليلَ أغلب هؤلاء الأطفال، متباعدة

هناك جملٌ يتمّ تداولها كحقائق في مجتمعاتنا تجاه أطفال هذا الجيل: (يا لهذا الجيل! جيلٌ لا يطاق، أشقياء لا تسعهم أرضٌ، صفيقو الوجه، ليس فيهم ذرة احترام، لاشيء يخيفهم أو يردعهم)، إنّ الأحكام السابقة تستند على العنف الذي ينطوي عليه سلوك أطفالنا، هذا السلوك الذي أصبح يشكّل قلقاً إضافياً لعالمنا، عالم الكبار؛ ولكن ماذا لو ذهبنا لتتقصي الحقائق في مكان مختلف؟ ماذا لو ذهبنا



# «تمتلك الحرب قدرة على تعرية كل شيء حتى الأحلام فجلاً» أحلام الأطفال تمحورت حول رؤية مقتل مقرّبين لهم وقطع رؤوسهم»

فما يطفو على وسائدهم يعكس بوضوح حجم الخوف والقلق الذي يعتريهم.

لا شك أنّ الأسرة في أي ظرفٍ كان، تتحمّل مسؤولية النمو النفسي لأطفالها، وهذه المسؤولية تحتم عليها تأمين الحماية والأمان، وقد تساعد الأحلام التي تلعب دور المرأة في الكشف عن أثرنا التربوي على سلوكهم، مما يساعد في حلّ الكثير من المشكلات العالقة بيننا؛ فالقسم الثاني من أحلام الأطفال في الاستبيان، تكررت لدى أغلبهم صور مثل: (أسرتي تتخلّى عني، إنهم يسافرون ولا يقبلون أخذي معهم، وأبقى وحيداً وخائفاً في المنزل)، (هناك عجوز وأحياناً ساحرة تقوم بتعذيبي أمام أهلي، وأستنجد بهم لكنهم يطلقون الضحكات بدل أن ينجدوني)، (إنني ضائع ووحيد في مكانٍ مهجور، أنا عالقٌ في مكانٍ مخيف، أصرخ منادياً عائلي، لكنهم بعيدون، وأحياناً كانوا يلتفتون إليّ ويضحكون).

إنّ رمزية أحلام الأطفال البسيطة تحيل إجابة مباشرة إلى المشكلة، وما يتضح من أحلامهم أنّ المشكلة تتركز على

في التفاصيل، إلا أنّها تصبّ في ذات المجرى، وعلى الرغم من أنّهم من مناطق تُعدّ آمنة نسبياً، مقارنة مع مناطق النزاعات المسلّحة، إلا أنّ قسماً من أحلامهم كان يتعلق بالحرب وتداعياتها، وقد اتسمت بالوضوح والمباشرة والبعد عن الرمزية التي تغلّف الأحلام، أما القسم الآخر فقد انطوى على دلالاتٍ رمزية، كانت تصبّ في علاقة الطفل بأسرته، وعلاقة الأسرة به.

تمتلك الحرب قدرةً مذهلة على تعرية كل شيء حتى الأحلام، فجلاً أحلام الأطفال تمحورت حول (رؤية مقتل مقرّبين لهم وقطع رؤوسهم والتمثيل بجثثهم، أو هجوم داعش على منطقتهم وتعذيب أسرهم، أو تعرّضهم للخطف، أو للتفجيرات، وكان للمقربين ممن هاجروا بسبب الحرب حصة في أحلامهم)، لهذا فإنّ ما يقصّ مضاجعهم هو ما أفرزته الحرب في واقعهم، من خطفٍ وقتلٍ وسرقة، يضاف إلى ذلك ما يصلهم من أخبار، ومتابعة ما حدث ويحدث في مناطق التوتر، كل هذا يشير إلى الأثر العميق الذي تركته وما تزال تتركه الحرب في أطفالنا،

# «نجحنا في تحويل أحلام أطفالنا إلى كوايس، لقد دسنا في نومهم حساء الخوف الذي صنعناه لهم في البقطة»

بالغدر والخيانة، بالاستغلال، بالخوف من الامتحان، بالإحساس بالفشل، بغضب الوالدين، بالسكون، بالعتمة، ويضاف إليها التنمر الذي يتعرضون له من الأقران الأقوياء جسدياً)، من اللافت أنّ وضوح هذه المخاوف يحاكي وضوح أحلامهم، فكلاهما يؤكد على ما يعاينه الأطفال في هذه المرحلة العمرية، وأقل ما يتطلب هذا الوضوح أن نحاول فهم أزمات أطفالنا، قبل أن نطلق عليهم أحكامنا القاتلة، هذه الأحكام التي أنتجت القهر في إجاباتهم على السؤال الثالث. ما الذي يزعجكم؟

الصورة كانت واضحة أمامهم، بينما لا اعتقد أنّها كذلك بالنسبة لنا نحن الكبار؛ إذ إنّ ما يزعجهم يدور حول: (تدخل الآخرين في أموري الشخصية، الكذب، التهديد، الاستفزاز، الاستهزاء، إجباري على فعل ما لا أريده، خلافات الوالدين، محاصرة الوالدين)، بالإضافة لذلك هناك إجابة اشترك فيها الأطفال من الإنث وهي: (القيود التي تفرضها الأسرة والمجتمع عليهن)، إنّ ما يخيف ويزعج أطفالنا ويجنح في أحلامهم، ليس إلا ما صنعناه

إحساس عام بين الأطفال بعدم الأمان وبالوحدة وبالتخلّي وبالخذلان والعجز؛ فحلم الساحرة يسميه هانز هوبف، العالم الألماني المتخصص بعلم نفس الطفل، بـ«حلم العجز»، ومردّد ذلك أنّ الطفل يتعرض في حياته اليومية إلى رقابة شديدة، وتُمارس عليه سطوة زائدة، بالإضافة إلى قائمة طويلة من الممنوعات، هذا الحلم وغيره من الأحلام يشير إلى عدم اكتراث واضح بمشاعر الأطفال، أو عدم الاكتراث بوجودهم أصلاً، وأننا لا نراهم سوى زمرة فاسدين من الأثقياء لا ينصاعون لشيء؛ فهؤلاء الذين لا يخيفهم ولا يردعهم شيء في النهار، من أين يتسرب إلى أحلامهم كل هذا الخوف؟ المشكلة تبدأ معنا إذن! منذ البداية نحن لم نوَقِّر لهم الحماية، لقد تركناهم يتعرضون لشتى أنواع الخوف، ثم حمّلناهم مسؤولية تجاهلنا لمشاعرهم كاملةً.

ربما تتضح الصورة أكثر في معرض إجاباتهم على السؤال الثاني: ممّ تخافون؟ لقد كانت الإجابات متناغمة مع أحلامهم، فمعظم المخاوف تتعلّق (بموت أحد المقربين، بالحرب والإرهاب،

وقدمناه لهم، فهم لم يولدوا على رؤوس الأشجار، وإن كانت إجاباتهم المتشابهة تدلّ، فستدلّ حتماً، على أنّ مناخاً واحداً يخيّم فوقهم.

كان تفاعل الأطفال في ستة صفوفٍ دراسية مع الاستبيان كبيراً، فلم أرهم من قبل بهذا الانهماك والاهتمام، لقد انكبوا على الأوراق يحيطونها بسرية تامة، وبعد أن فرغوا من الإجابة، قاموا بطيها جيداً قبل تسليمها، وحين أخبرتهم أنّي سأكتب عن أحلامهم ومخاوفهم، فرّت الضحكات من عيونهم، وارتفعت أصواتهم (نحن لم نحظ بهذا الاهتمام من قبل، لم يسألنا أحدٌ هذه الأسئلة)، هذه الاعترافات لا يمكن إلا أن تشعرننا بالخجل من أنفسنا، فنحن في الحقيقة بدل أن نستمتع إليهم، نُسمِعهم؛ لأننا لا نجرؤ على الاعتراف أنّنا من سبب مشاكلهم وأزماتهم؛ فالأطفال في هذه المرحلة العمرية لا يحتاجون إلى نبش ما بدواخلهم، ولا لاقتراح الحلول التي لم تنجح حتى الآن في شيء، إنهم يحتاجون فقط إلى من يستمع لهم باهتمامٍ وحبٍّ، وإلى مشاركتهم هواجسهم ومخاوفهم.

ولكن قد يكون الأمر في المراحل العمرية الأصغر مختلفاً جداً، فعند سؤالي لطفلٍ في عمر الثامنة عن حلمٍ يتكرر لديه -وهو طفل قادم من إحدى مناطق التوتر،

وتشكو مدرسته من سلوكه العنيف- ردّة فعله كانت صادمة، لقد أجهش بالبكاء وبدأ يتقيأ، وعندما حاولت تهدئته، وضع يديه على أذنيه خوفاً من أن أعيد السؤال عليه مرّةً أخرى، هنا يمكن أن نشاهد فداحة ما يحلم به أطفالنا كلما كانوا أقرب إلى مناطق النزاع، فنحن والحرب نجحنا في أن نحوّل أحلام أطفالنا إلى كوابيس، لقد دسنا في نومهم حساء الخوف الذي صنعناه لهم في اليقظة، ثم لم ننتبه إلى أنّها وجبة قاتلة؛ فالسلوك الذي يصدر عن أطفالنا ونصفه بالعنيف هو النتيجة المنطقية لقانون السببية؛ (لكل فعلٍ ردّة فعلٍ تساويه بالشدّة وتعاكسه بالاتجاه)، نحن من بادر بالعنف، وليست ردّات أفعالهم إلا لأننا نسيناهم في العتمة، في فائض خوفنا وقلقنا وعنفنا، ولكي نراهم ملائكة عليهم أن يغرّقوا بصمت، وإلا فهم الشياطين.

لطالما وقفنا نحن الكبار أمام أحلامنا وحاولنا فتح مغاليق إشاراتنا ورموزها، بينما لم يكثر أحدٌ ممّا لأحلام أطفاله، وبالرغم من وضوح ومباشرة أحلام الأطفال، إلا أنّها بقيت على هامش اهتماماتنا، هذه الأحلام التي قد تكون طريقاً إلى فهم أرحب، يُجَبِّهم الخوف ويجبّبنا المعاناة، ولكن كيف لمجتمع أن يصغي لأحلام أطفاله، وهو لا يقيم اعتباراً لوجودهم أصلاً؟

# من يُغلق أفواه أطفالنا بحلول المصاص؟



المكتبة المدرسيّة الغربيّة؛ بل هو إشارة إلى الفقر المعرفي الذي تنتجه مجتمعاتنا، عندما نقلّص ونختزل حوامل المعرفة أو نذرّيها، إنّه الفقر الذي يجعلنا نرى الكون بحجم كرة الغولف.

ففي معرض سؤالي لطفلٍ في الصف الثالث: هل يمكن أن تصف لي مكتبة المدرسة؟ استغرق وقتاً وهو يفكر في

«من كان وعيه بحجم كرة غولف، سيرى الكون بحجمها»، هذه الجملة ربما تجعلنا نعيد التفكير في الوفرة التي تحمل الاتساع إلى المعرفة، ومن بين ما سنفكر به طويلاً هو المكتبة، التي حملت مع الكاتب الأرجنتيني بورخيس معنى (اللا نهاية)، إنّها المكان الذي تحظى به المعرفة بالاتساع، والوعي الإنساني بالانفتاح والنمو، لذلك لم يكن القصد في المقال السابق تعظيم

## «من المريب أنّ المدرسة التي توقّر المعرفة والكتاب وتسرف في تمجيد العلم والنور بين دفتيه تزدري مكتبتها المدرسية»

المعرفي والثقافي في معظم مدارسنا، ودورها الذي يُختصر إلى توزيع الكتاب المدرسي في بداية العام واستلامه في نهايته، يحمل ازدراءً فاقعاً للمعرفة والعلم، إنّها المكتبة المدرسيّة التي تحولت من ضرورة معرفيّة وثقافية وإنسانيّة إلى لا شيء؟

من المريب أنّ المدرسة التي توقّر المعرفة والكتاب، وتسرف في تمجيد العلم والنور بين دفتيه، تزدري مكتبتها المدرسية، وإن وجد استثناء في مدرسةٍ ما فما هو إلا تأكيدٌ للقاعدة، فالمكتبة المدرسية في معظم مجتمعاتنا تعاني هزالاً معرفياً، يتبدى في فقرها وفقر كتبها، كما تعاني من إهمالٍ متعمّدٍ لدورها التربوي، بالتالي هي تؤكّد أنّ المناهج المطورة التي تعتمد على المعرفة البحثية، هي مناهج شكلية لا تهدف حقاً لتغيير بنية الثقافة القائمة على الحفظ والتلقين، وإنما إلى ترسيخ السطحيّة والانحطاط في المعرفة.

بحسب رصد فيصل خير الله المداينة وهشام يعقوب مريزيق للمكتبات المدرسية في كتابهما «المدرسة المعاصرة»، وجدا أنّ هناك معوقات كثيرة تحول بين

الإجابة، وفي محاولة مني لمساعدته، سألته: هل تحتوي رفوفاً أم خزانةً للكتب، جاءت إجابته مع ضحكةٍ خجولة: مكتبتنا درج صغير فيه مجموعة من القصص؛ فإذا كانت تقاس أهمية المكتبة المدرسية بما تنطوي عليه من معارف مختلفة، وبما تنعم به من سبل الراحة والهدوء والتنظيم، والأنشطة التي تقدمها، ودورها الفاعل في المناهج الدراسية الحديثة، وعلاقة الطفل بها، فإنّ درجاً يحتوي مجموعة قصص، أو خزانة صغيرة نصف كتبها تمجد العقائد والرموز، يحتمل ذلك أي مسمّى إلا مسمّى المكتبة المدرسية.

وإذا قمنا بالتفتيش في قوائم الضروريات والحاجات والكماليات، هذه التقسيمات الشائعة للأشياء في مجتمعاتنا التي أنتجتها سياسة التفجير، لن نجد المكتبة المدرسية في أية قائمةٍ منها، فهي لم تحظَ حتى أن تكون في قائمة الكماليات؛ لأنّ الكماليات رغم عدم توفرها قد تشكل طموحاً عاماً في الحصول عليها، بينما المكتبة المدرسية لم تفقد أهميتها فقط، وإنما فُقد الإحساس بوجودها أيضاً، فوجودها الذي لم يشكل فارقاً في عملية التحصيل

## «أمين مكتبة صرخ بالأطفال: اذهبوا إلى البوفيه واشتروا المصاص. هل أصبحت الكتب كالمصاص بالنسبة لكم!»

الزرقاء وشمال عمان في الأردن، من الصف الثاني الأساسي وحتى العاشر، إحصائية غير مفاجئة، بل هي مقدمة ونتيجة في آنٍ واحد لتلك المعوقات، فقد وجدنا أنّ ١٠٪ من عدد الأطفال شبه أمين وحوالي ٢٠٪ منهم يعانون صعوبات كبيرة في القراءة وهذا يعني أنّ نسبة ٣٠٪ من عدد الطلاب يعانون صعوبات كبيرة في القراءة تقف عائقاً بينهم وبين المطالعة الحرّة، وبرأيهما هذا رقمٌ كبير يستدعي إعادة النظر في مجمل العملية التعليمية.

النتائج التي توصل إليها الباحثان تعكس النمط الثقافي والتربوي الذي تنتجه المدرسة، بناءً على الشروط الاجتماعية والسياسية التي تحدّها وتقيدها، فالتفصل بين العلم والمعرفة الذي تحرسه تلك الشروط، هو ديدن بقاء هذه البنى التسلطيّة وطريقتها الوحيدة للحفاظ على نفسها، وهي لا تقتصر على مجتمع بعينه إنما تعمّ أغلب مجتمعاتنا، وبما أنّ «الحياة في التفاصيل» قد تكفي جولة بين المكتبات المدرسية، لنشاهد بوضوح ما الذي يحدث هناك.

الطفل والكتاب، من أبرزها: عدم توفر حصص خاصة لزيارة المكتبة، وعدم توفر الوقت المناسب للأطفال لزيارة المكتبة، وعدم توفر المكان والتجهيز المناسب، وسعة المناهج وتشعبها بحيث لا يُترك مجال مناسباً للأطفال لتحقيق رغبتهم في المطالعة الحرّة، وندرة تشجيع الإدارة والهيئة التدريسية للطلبة للإقبال على المطالعة الحرّة وزيارة المكتبة.

وأضفاً على ذلك أنّ أغلب مؤسساتنا الثقافية لا تُعنى كما يجب بثقافة الطفل وأدبه على امتداد الوطن العربي، وهذا يؤدي إلى عدم توفر العدد الكافي والمناسب من الكتب ثلاثم عدد الطلاب وفئاتهم العمرية المختلفة، فإذا علمنا أنّ عدد الكتب الموجهة للأطفال في سائر مكتبات المملكة العامة والخاصة لا يتجاوز ثلث مليون كتاب، أي بواقع كتاب لكل ستة أطفال، في حين تتحدث النسبة الدولية عن ٣ كتب لكل طفل، إذا عرفنا ذلك أدركنا حجم المشكلة.

ما سبق سيجعل من الإحصائية التي أجراها الباحثان في عدد من مدارس



ذائقته، هذا يؤكد أنه إن وجد رقابة فهي رقابة فقط على المحظور من الكتب التي تهدد أنظمة مجتمعاتنا، وبالتالي فإن ما يدخل من كتب إلى المكتبة المدرسية وما يُمنع عنها، هو سياسة مُمنهجة لأنظمةٍ تعمل على تغييب الوعي والمعرفة في الأماكن التي يجب أن تصنعها، لذا فإنّ فقدان المعنى هو المعنى الوحيد من وجود المكتبة في واقعنا.

في مقال سابق عنوانه، «إذا كنا نعلّم أطفالنا القراءة فأين يختفي القارئون؟» قد يكون جزءاً من الإجابة هنا: «ففي إحدى مدارس المرحلة الأولى اكتشف الأطفال أنّ هناك مكتبة في مدرستهم، فبدؤوا يتوافدون في الاستراحة لاستعارة القصص، فما كان من أمين المكتبة الذي ضاق ذرعاً بهم، إلا أن صرخ بهم، أنا لست بائع (مصاص)، اذهبوا إلى البوفيه واشتروا المصاص من هناك، هل أصبحت الكتب كالمصاص بالنسبة لكم»، ربما يبدو في رده أنه يعلي من شأن الكتاب، ولكن في الحقيقة قام بتوجيه الأطفال إلى المصاصة التي تمتصها ألسنتهم، بدل الكتاب الذي تمتصه عقولهم.

من هنا يبدأ القارئون بالاختفاء مع اختفاء مكتبتهم، الحلقة المفقودة للمعرفة؛ حيث تصبح القراءة في المنهاج

يبدو أنّ الخطوات التي تنتهجها أنظمتنا العامّة مدروسة بعناية، فأمين المكتبة المدرسية الذي تطوّر دوره في المدرسة الحديثة ليصبح أخصائي المكتبة، مازال الوظيفة الشاغرة للمعلمين المرضى الذين لم يعد بإمكانهم مزاولة المهنة، فالمكتبة المدرسية هي استراحة المحارب بالنسبة إليهم، وفي ظل عدم تفعيلهم لدور المكتبة، غالباً ما يُملأ جدول استعارة الكتب باستعارات وهمية للحفاظ على البريستيج الشكلي للعمل، وفي سؤالٍ لأحد أمناء المكتبة المدرسية: لماذا لا يعمل على تفعيل دور المكتبة المدرسية؟ كانت إجابته: إنه يخشى أن يُتلف الأطفال الكتب، فهو الوحيد الذي يتحمّل مسؤولية تلف أي كتاب. هذه الإجابة تشير إلى أنّه هناك رقابة على الكتب، ولكن ما شكل هذه الرقابة؟

فمن خلال الاطلاع على سلسلة قصصية مصوّرة بأحرف مضبوطة الشكل، في إحدى المكتبات المدرسية، يحرص عليها أمين المكتبة ككنزٍ ثمين في مكتبته الفقيرة، نجد أنها لا تناسب الفئة العمرية للأطفال هذه المرحلة وإنما تناسب الفئة العمرية الأصغر، والقصص التي تضمّها غير مدروسة تربوياً، حيث تساهم في تشويه وعي الطفل ونموّه النفسي، بالإضافة للأخطاء اللغوية والنحوية التي تشوه

الدراسي، هي مفهوم الطفل عن القراءة،  
فإذا كان الكتاب هو الحامل الأساسي  
للمعرفة التي ستعبر بالفرد إلى الوعي،  
فليس من مصلحة أية سلطة أن تعلي  
من شأن المكتبات وتصنع أعداءً لها، إنَّها  
ستبذل جهدها في إنتاج المزيد من حلوى  
المصاص، الذي يغلق الأفواه بدل الكتاب  
الذي يفتحها.

# هل الخوف على أطفالنا يحميهم؟



ولكن ماذا لو كان هذا الخوف مقصوداً بذاته؟ مصنوعاً على مقياس إدراكاتنا، ألا يستدعي ذلك أن نعيد قراءة كل شيء بطريقة مختلفة، أو بطريقة لا يُراد لنا أن نفكر بها؟ فربما هناك من يشنت فهمنا للمسؤولية، ويجفّف الحب في صلبها، ثم يفصلها عن الجذر العميق الذي يشكّلها: الاهتمام.

ساهمت الفيزياء الحديثة بإعادة الاعتبار لكثير من الفعاليات النفسية،

يُعتبر الخوف على الطفل واحداً من القيم الاجتماعية المتجذرة في أنماطنا التربويّة، ومن الطبيعي أن يرى الجميع هذا الخوف أنه: المرادف الواقعي لإحساسنا بالمسؤوليّة تجاه الطفل، فمع تفشي فيروس كورونا، أصبحت صورة هذا الخوف أكثر حدّةً، خاصّةً حين دخلنا مؤخراً في متاهات خشيتنا حول إرسالهم أو عدم إرسالهم إلى المدرسة، فالجميع يقف حائراً وخائفاً أمام القرارات الواجب اتخاذها في هذه المواجهة.

## «يُعتبر الخوف على الطفل واحداً من القيم الاجتماعية المتجذرة في أنماطنا التربوية»

أصل ٤٦ شيفرة محتملة في حمضنا النووي، ويعود هذا العدد القليل إلى أن هناك مفتاحاً يشغل ويطفئ هذه الشيفرات، وقد نتفاجأ لمعرفة أن هذا المفتاح هو الأحاسيس، فالأحاسيس تتفاعل مباشرة وفيزيائياً مع جينات الإنسان.

والخوف باعتباره موجة طويلة وبطيئة من المشاعر، فإنه يلمس نسبياً مواقع قليلة من الحمض النووي، مما يعني أن شخصاً يعيش في حالة من الخوف، محصور بعدد مواقع الاستشعار المتوفرة لديه؛ أي إنه ينطوي على محدودية ضيقة في التفكير وقابلية كاملة للقسر والإذعان والتسلط، بينما الشخص الذي يعيش في حالة من الحب، يمكن أن نلاحظ لديه تردداً أعلى وموجة أقصر، فهو يمتلك مواقع محتملة أكثر للتشفير داخل الحمض النووي، بالتالي قدرة غير محدودة على الابتكار والخلق والإبداع والنشاط والفرح.

وفهمها فهماً واقعياً بعيداً عن الأبولات الميتافيزيقية التي كانت تلتفها، وقد يكون أهم اكتشافاتها أن الأحاسيس البشرية هي التجلي الفيزيائي لإشارات غير ملموسة، تمتلك ترددات متذبذبة، بالإمكان قياسها مخبرياً، وقد خلصت نتائجها إلى أن هناك إحساسين فقط يشعر بهما الإنسان، (الخوف والحب)، بينما الأحاسيس الأخرى تتشعب منهما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ومن خلال تجارب الفيزياء الحديثة تم تحديد شكل الخوف على أنه تردد موجي طويل وبطيء، بينما الحب الذي يقف على النقيض، تم تحديده كتردد سريع وعال، أو ما يمكن اعتباره الوجود الحيوي والنشط.

كما يمكن الاستفادة أيضاً في فهم الأحاسيس من تجارب البيولوجيين المتخصصين في دراسة الخلية الحية للإنسان، إذ يجمعون على أننا لا نمتلك حالياً في جيناتنا سوى ٠٢ شيفرة مفعلة، من

«على ما يبدو هناك من يستثمر الخوف بفاعلية عالية ويدير محركاته بكفاءة»

# «لا يمكن للإنسان أن يهتم بما لا يحب فالخوف والاهتمام ينتميان إلى حقلين مختلفين»

الحب، بمعنى، لا يمكن للإنسان أن يهتم بما لا يحب؛ فالخوف والاهتمام ينتميان إلى حقلين مختلفين، مما يعني أنّ الاهتمام بالطفل يقلص مساحة الخوف، ويفرد الطريق واسعاً أمام الثقة التي يتشكل منها الفرد الأكثر حكمةً وشجاعةً، وإذا كان الجميع يخافون على أطفالهم، فهذا لأننا اعتقدنا منذ البداية أو راق لنا أن نعتقد بأنّ الخوف يحميهم، ولكن هل يحمي الخوف من الخوف؟

فإذا كان هناك في هذا العالم التسلطي من يستثمر في أحاسيسنا ومشاعرنا، ليغلق علينا دائرة الخوف، فنحن أيضاً من حيث يُراد لنا، نساهم بجديّة في دخولنا هذه الدائرة، فعندما نضع أطفالنا في قالب ما نريد وما نتوقع منهم، هذا سيجعل من أيّ تغيير أو طارئٍ تهديداً لمخططاتنا، التهديد الذي سيضاعف مخاوفنا على أطفالنا وعلى مستقبلهم، ومن الجهة الأخرى نحن بعدم رغبتنا بذلّ جهدٍ حقيقيّ في التفكير والبحث عن الحلول، أو الوقوف على مسؤوليتنا العميقة نحو الطفل، سوف نهرب إلى الخوف ونلجأ إليه، لأن الخوف مصمّم ليحفينا من اهتمامنا ومهامنا، كأن

على ما يبدو هناك من يستثمر الخوف بفاعليّة عاليةٍ ويدير محرّكاته بكفاءة، فأنماط الهيمنة كافّة لا تتشكل إلا في انحسار حرّيّة الفرد وإرادته، وليس هناك أداة أفضل من الخوف لتحقيق ذلك، لقد نجحت الأنظمة التسلطيّة في جعل الفرد يخاف مما يحب ويحب ما يخاف، وهذه العمليّة ساهمت على مرّ التاريخ بتقليص مفردات الوجود والخط من شأنها.

وفي عالم اليوم الذي يشهد التفاهم والتعاون والثقة انخفاضاً عالياً، انفتحت واسعاً أبواب التعصّب والتطرّف والعنف، لقد ضاعف الخوف من عجز الإنسان ومحدوديته وإذعانه، وتمكنت موجة الخوف التي عززتها التقيّيات الحديثة ووسائط الهيمنة والتحكّم، من بسط سيطرة شاملة على الإنسان المعاصر، الذي بات يفتقد افتقاراً جوهرياً إلى السلام والتصالح الداخلي العميق، فعلى ضوء اللهاث المستمر داخل ثقافةٍ معمّمة، أصبحت المجانيّة والسطحيّة أهمّ سمات الفرد.

بناءً على ما سبق لا يمكن أن ينتج الاهتمام عن الخوف، فالاهتمام ينتج عن

# «المشكلة ليست بإرسال أطفالنا إلى المدرسة أو عدمه بل في الخوف الذي يتحكم بمصائرنا ومصائرهم»

يكفي أن نخاف على أطفالنا لنبتعد عن أي  
تقصير نشعر به اتجاههم.

المشكلة ليست في إرسال أطفالنا إلى  
المدرسة أو عدم إرسالهم، إنها في الخوف  
الذي يتحكم في مصائرنا ومصائر أطفالنا،  
أطفالنا الذين سيكبرون وهم مزودون  
بالخوف، لقد كنا قد قذفناهم من قبل إلى  
مستقبل لا يشبههم، وهم بدورهم أصبحوا  
ملاحقين بهواجسنا ومخاوفنا وتوقعاتنا،  
وسوف يعيدون الكرة مع صغارهم، ولن  
يتوقف الدوران في هذه الحلقة المفرغة  
حتى نفكر بطريقة مختلفة، فنحن جميعاً  
نخاف على أطفالنا من كل شيء، ولكن هل  
نجحنا حقاً في حمايتهم من أي شيء؟



# هل الاغتراب النفسي طارئ على حياة أطفالنا؟



البحث حتى تطالعنا الكثير من التقارير والبحوث والدراسات التي تتناول مشاكل الطفل النفسية، ومقدار العنف الذي يتعرض له الأطفال في ظل كورونا والأزمات المرافقة له، هذا الاهتمام الملحوظ يدفعنا لتساءل: هل الاغتراب النفسي طارئ على حياة أطفالنا وأطفال العالم إثر كورونا، أم أنّ تاريخه يعود إلى ما قبل انتشار هذا الفيروس؟

بعد أشهرٍ قليلة من إعلان كوفيد ٩١ وباء عالمياً، بدأ الخبراء النفسيون يحذرون من نتائج النفسية على الأطفال، ومن الضغوطات التي يتعرضون لها نتيجة الحظر الذي فُرض في معظم الدول، حيث رأى هؤلاء الخبراء أنّ التعليم عن بعد وغياب التفاعل الاجتماعي وازدياد العنف الأسري أدّى إلى إصابة أطفالنا بنوع من أنواع الاغتراب النفسي، وبعد دخولنا للعام الثاني يكفي أن نستخدم محركات

## «مراحل النمو النفسي للطفل في مجتمعاتنا يخيم على أجوائها الخوف بفعل الأسلوب المعتمد في أنظمتنا التربوية كافة»

يعاني منها أطفال مجتمعاتنا، والتي تبدى في العزلة الاجتماعية والشعور بالعجز وغياب المعنى وغياب المعايير والغربة عن الذات، وهو يحيل ذلك إلى السلطوية في التربية، والتي تقوم على أساليب قمعية وتعسفية كالشدة والعقاب وإلقاء الأوامر والتهديد والتوبيخ والإحراج، وذلك لتحقيق الخضوع والتبعية، ابتداءً من البيت مروراً بالمدرسة وصولاً إلى الجامعات والمؤسسات الاجتماعية كافةً.

إنّ التوصيفات السابقة تحيل إلى أنّ مراحل النمو النفسي للطفل في مجتمعاتنا يخيم على أجوائها الخوف بفعل الأسلوب المعتمد في أنظمتنا التربوية كافةً، أسلوب العصا والجزرة، وبمعنى أوضح أسلوب الترهيب والترغيب الذي يعتمد الثواب والعقاب في تحديد ميول الطفل ورغباته، هذا الأسلوب الذي يتناغم مع البنية السلطوية والقهرية للسلطات المستبدّة، إذ إنها تعتمد في تماسكها واستمرارها على المعرفة التلقينية التي تصدر على ملكات النقد والحكم عند الطفل، ليصبح التعلم عبارةً عن تراكمٍ معلوماتي يفرغ عقول الأطفال من الدهشة والإبداع، ثم يكمل

إنّ كافة المؤشرات النفسيّة والاجتماعيّة تؤكد تنامي الشعور الاغترابي عند الإنسان المعاصر، وهذا ما جعل من الاغتراب عند الأطفال اغتراباً غير ملحوظ إلا بالنسبة للخبراء والمختصين، وإذا ما انتقلنا إلى ضفة مجتمعاتنا التي يعاني أفرادها أساساً من اغتراب شامل، سياسي واقتصادي واجتماعي، فمن الصعب أن نحدد منشأ الاغتراب النفسي عند أطفالنا، دون العودة إلى جذوره الممتدة في كل تفاصيل حياتنا، فهذا الاغتراب كما يراه «علي وطفة» في بحثه المعنون بالمظاهر الاغترابية في الشخصية العربية: «هو الوضعية التي ينال فيها القهر والتسلط والعبودية من جوهر الإنسان، وهو الحالة التي تتعرض فيها إرادة الإنسان أو عقله أو نفسه للاغتصاب والقهر والاعتداء والتشويه، وبالتالي إنّ أدوات الاغتراب هي مختلف أدوات القهر، وكل ما من شأنه أن يعاند نمو الشخصية الإنسانية وازدهارها وتفتحها».

ما ذهب إليه علي وطفة في تعريفه يؤكد «عيسى الشورطي» في كتابه «السلطوية في التربية العربية»، من خلال تحديده لمظاهر الاغتراب النفسي التي

# «التسلط يستثمر وجوده في أبسط الأحداث وأعقدها، لذا فإنَّ كورونا بالنسبة له يصبح مشجباً من بين الكثير من المشاجب التي يعلّق عليها إخفاق العلاقات الإنسانيّة»

الخنوع والاستسلام، فحين يصبح الهم الأساسي لأي نظام سياسي استمراره، كثيراً ما يقع الاختيار على نظامه التربوي ليكون وسيلة لتحقيق ذلك الغرض».

الكل يعلم أنّ فترات الحجر الطويلة التي فرضها الواقع الكوروني، فاقمت من المشاكل الأسرية عامّةً ومن العنف الموجه نحو الطفل بشكل خاص، فالخلافات الأسرية الحادّة بين الأزواج، نال الأطفال منها النصيب الأكبر، فقد سهّل هذا الوباء العالمي العنف في الأسرة نتيجة فترات البقاء الطويلة داخل المنزل وما رافقها من ظروف معيشيّة صعبة، ولكن هذه النتائج ليست وليدة الحجر، بل هي في الحقيقة تنتمي إلى المقدمات الاجتماعيّة والمنظومات التربوية الخاطئة، إنها تنتمي إلى الخلل العميق لسياسات التسلط التي تقلّص الاعتراف بالآخر، وتهمّش الجوانب العميقة للعلاقات الإنسانيّة لصالح ثقافة الانحدار نحو الإقصاء والتهميش.

التسلط الذي يغذي مجتمعاتنا الهرميّة يجعل من عدم المساواة المدنيّة

هذه المسيرة النكوصيّة نظام العلامة الهرمي الذي يُعتمد في تقييم الطفل وتحديد مستوى ذكائه، ونحن ندرك جيداً ما هو مستوى هذه الذكاءات في مجتمعاتنا قياساً بإنجازاتها العلميّة والمعرفية المتديّنة.

لا شك أنّ نظام الحجر الذي اتّخذ في مواجهة تفشي فيروس كورونا، سهّل عملية الاعتراف بالأعراض النفسيّة المرافقة له وبأزمات أطفالنا، ولكنّ هذا الاعتراف كان مشروطاً ومحدّداً ومتعلقاً بالوباء نفسه، مما يغفل أنّ المشكلة تعود في مجتمعاتنا إلى تاريخ نشوء التسلط السياسي، فهو المنتج الحقيقي لجميع السلطويات الأخرى التي تتغذى من الجذور العقائدية نفسها، مهما تباين شكل المؤسسة ومضمونها، سواءً كانت مؤسسات اقتصادية أم اجتماعيّة أم دينيّة، وبالطبع ليس هناك أفضل من المؤسسات التربوية لتمكين التسلط ونشره، حيث يرى «الشروطي» أنّ «الأنظمة التسلطيّة تنظر إلى التربية كوسيلة تستطيع من خلالها تطويع شعوبها وتعويدها على

والسياسية القاعده العريضة لوجوده، وهذا التأسيس على غياب العدالة يترآكب بالضرورة مع غياب الحق والقانون، لتغدو منظومة الحقوق فيه كحقوق الطفل منظومة صورية ومفارقة للواقع، وهذا ما سيفضي إلى مجتمع يفتقر إلى الإبداع والتجدد، ويفتقر إلى الحس الإنساني التشاركي الفاعل، حين تصبح العلاقات داخله مغلقة على نهايات حتمية، لن يخسر الإنسان فيه حقوقه فقط، بل سيخسر معناه الإنساني الكامل، إنَّ التسلُّط يستثمر وجوده في أبسط الأحداث وأعقدّها، لذا فإنَّ كورونا بالنسبة له يصبح مشجباً من بين الكثير من المشاجب التي يعلّق عليها إخفاق العلاقات الإنسانية، متذرّعاً بالطبيعة العدوانية للإنسان تارةً، وبقصور الوعي العام تارةً أخرى، وهكذا يتنصّل التسلُّط من مسؤوليته عن كل ما يحدث، لنعتمد جميعاً أنّ كورونا هو السبب.